

أطراف الحج



«الحج موسم ومؤتمر، الحج مؤتمر اجتماع وتعارف، الحج مؤتمر تنسيق وتعاون، الذكريات ترف» في الحج كالأطراف، طيف إبراهيم وإسماعيل وهاجر ومحمد بن عبد الله، الحج مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطى وتوحيد القوى، الحج تنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل، (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتُ تَيْنَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ أُخِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (الحج/ 26-29).

للتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة، عرف الله مكانه لإبراهيم (ع) وملائكته ليقومه على هذا الأساس: (أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا): فهو بيت الله وحده دون سواه، وليطهره لمن به من الحجيج، والقائمين فيه للصلاة: (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)، فهؤلاء الذين أنشئ البيت لهم، لا لمن يشركون بالله، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه. ثم أمر الله إبراهيم - بأني البيت - إذا فرغ من إقامته على الأساس الذي كُلف به أن يؤذن في الناس بالحج؛ وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام ووعدته أن يلبي

الناس دعوته، فيتقاطرون على البيت من كل فج، رجالاً يسعون على أقدامهم، وركوباً (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) ، جَهْدَهُ السَّيْرُ فَضَمَرٌ من الجهد والجوع: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) .. وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم (ع) إلى اليوم والغد. وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام؛ وترف إلى رؤيته والطواف به.. الغني القادر الذي يجد الظهر يركبه وسيلة الركوب المختلفة تنقله؛ والفقر المعدم الذي لا يجد إلا قدميه. وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم (ع) منذ آلاف الأعوام. ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته. (لَيْشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالْإِنْسَانَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوُّوْا) (بِالْبَيِّنَاتِ الْعَمَلِيَّةِ) والمنافع التي يشهدها الحجاج كثيرة فالحج موسم ومؤتمر. الحج موسم تجارة وموسم عبادة. والحج مؤتمر اجتماع وتعارف، ومؤتمر تنسيق وتعاون. وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة.. أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقاً رائجة، حيث تُجَبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء.. من أطراف الأرض؛ ويقدم الحجاج من كل فج ومن كل قطر، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم. يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد. فهو موسم تجارة ومعرض نتاج؛ وسوق عالمية تقام في كل عام. وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام. وهي ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد. طيف إبراهيم الخليل (ع) وهو يُودَعُ البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه: (رَبِّ انْزِلْ لِي آيَاتٍ مِنْ دُونِ بَيْتِي بِرُوحٍ غَيْرِ ذِي زُرْعَةٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (إبراهيم/ 37).. وطيف هاجر، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة الملتهبة حول البيت، وهي تهول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش، وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل.. ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيع. وإذا هي زمزم. ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجذب. وطيف إبراهيم (ع) وهو يرى الرؤيا، فلا يتردد في التضحية بفلذة كبده، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد: (قَالَ يَا بُدَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي

أَذْذِبْ حُكَّ فَارْطُورْ مَا ذَا تَرَى (الصفات/ 102)، فتجيبه الطاعة الراضية في إسماعيل (ع): (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنْ الصَّابِرِينَ) (الصفات/ 102).. وإذا رحمة الله تتجلى في الفداء: (وَزَادَ يَنْذَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبْتَلِينَ * وَفَدَّيْنَاهُ بِذَرْبِ حِجِّ عَظِيمٍ) (الصفات/ 104-107). وطيف إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يرفعان القواعد من البيت، في إنابة وخشوع: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة/ 128). وتظل هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتنابع، حتى يلوح طيف عبد المطلب، وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء. وإذا هو عبد الله. وإذا عبد المطلب حريصاً على الوفاء بالنذر. وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء، والقدح يخرج في كل مرة على عبداً، حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هي الدية المعروفة. فيقبل منه الفداء، فينحر مائة وينجو عبداً. ينجو ليوذع رحم آمنة أظهر نطفه وأكرم خلق الله على الله (محمد رسول الله) (ص) ثم يموت! فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير! ثم تتواكب الأطياف والذكريات. من محمد رسول الله (ص) وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى، حول هذا البيت.. وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفئ الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل.. وهو يصلي.. وهو يطوف.. وهو يخطب.. وهو يعتكف.. وأن خطواته (ع) لتنبض حية في الخاطر، وتتمثل شاخصة في الضمير، يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق في تلك الذكريات.. وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وتدف فوق هذا الثرى، حول ذلك البيت، تكاد تسمعها الأذن وتكاد تراها الأبصار! والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة. مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل: (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا) (الحج/ 78).. ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعاً إليه: هذه القبلية التي يتوجهون إليها جميعاً ويلتقون عليها جميعاً.. ويجدون رأيتهم التي يفئون إليها. راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان.. ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حيناً.. قوّة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين. الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رأيته الواحدة التي لا تتعدد.. راية العقيدة والتوحيد. وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب. وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل

عام. في ظل ا. بالقرب من بيت ا. وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة، والذكرات الغائبة والحاضرة. في أنسب مكان، وأنسب جو، وأنسب زمان. فذلك إذ يقول ا سبحانه: (لَيْسَ شَهْدُكُمْ مَذْفَرٍ لَّهُمْ) (الحج/ 28).. كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته. وذلك بعض ما أراده ا بالحج يوم أن فرضه على المسلمين، وأمر إبراهيم (ع) أن يؤذن به في الناس. المصدر: مجلة ثقافة التقريب/ العدد 19 لسنة 2008م